المحاضرة 2: تاريخ الفكر الأنثروبولوجي

مقدمة: سنحاول في هذا المقياس تسليط الضوء على أهم المحطات التي ولدت من خلالها أنثروبولوجيا كتخصص قائم بذاته يهتم بدراسة الإنسان ويقدم تفسيرات للسلوكيات الثقافية.

تعريف الأنثروبولوجيا: كلمة (الأنثروبولوجيا) يونانية الأصل وهي تتكون من مقطعين (أنثروبوس) ومعناها الإنسان و(لوجوس) ومعناها العلم، فالأنثروبولوجيا إذن هي علم الإنسان تدرس أصوله البيولوجية والتاريخية وتفاعله وعلاقاته داخل المجتمعات وهي تهتم بتطوره وارتقائه من الأشكال الأولية وما طرأ عليه من تغيَر في شكله وأيضا في أنماط سلوكه وبيئته الاجتماعية.

إنَ المعنى الاشتقاقي للأنثروبولوجيا واسع جدا وعام لأنَها تهتم بكل جوانب حياة الإنسان في كل الأماكن والأوقات فهي شمولية وتركيبية (تدرس الإنسان دراسة شاملة فيزيولوجيا واجتماعيا في الماضي والحاضر من زوايا متعددة ومختلفة) ولهذا تسمى أيضا علم الجماعات البشرية.

تعريفات بعض العلماء للأنثروبولوجيا:

1- هي العلم الذي يدرس الإنسان ككائن اجتماعي ويشمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية دون تحديد زمني أو مكاني (فرانز بواس).

2- هي علم دراسة جماعات الناس وسلوكهم وإنتاجهم وهي أساسا علم خاص بدراسة التاريخ الطبيعي لمجموع أوجه النشاط البشري التي أصبحت منجزاتها الراقية في المجتمعات المتمدنة منذ زمن بعيد ميدانا للعلوم الإنسانية (كروبر).

3- هي علم دراسة الإنسان وأعماله (لنتون).

4- هي العلم الذي يهدف إلى فهم الإنسان من خلال عدَة ميادين عملية قد تكون مستقلة لكنها متصلة بعضها ببعض والأنثروبولوجيا قسمان طبيعية وثقافية ويندرج تحت الطبيعة دراسة السلالة والعنصر والبيولوجية البشرية ويندرج تحت الثقافة الإثنولوجيا والاثنوجرافيا والآثار والفولكلور واللغويات والأنثروبولوجيا الاجتماعية فهي ذلك الفرع من دراسة الإنسان الذي ينظر إلى الإنسان من حيث علاقته بمنجزاته (الدكتور إحسان محمد الحسن).[1]

لمحة تاريخية عن نشأة الأنثروبولوجيا:

ساهم الصينيون والمصريون القدامى والإغريق والفينيقيون في نشأة الفكر الأنثروبولوجي فقد كان للأسفار والرحلات التي قامت بها هذه الشعوب وأيضا الغزوات والحروب دورا مهمَا في التعرَف على عادات وتقاليد الشعوب الأخرى وطرق عيشها، ويجمع الأنثروبولوجيون على أنَ الرحلة التي قام بها الفراعنة المصريون في 1493 ق م إلى بلاد بونت (الصومال حاليا) بهدف التبادل التجاري تعد من أقدم

[1] موسوعة علم الاجتماع، أ. إحسان محمد الحسن، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص96و97.

الرحلات في التعارف بين الشعوب (يوجد بالكرنك المصري صورا للصوماليين تبيَن بدقَة متناهية أشكال أجسامهم ولباسهم المختلف عن المصريين)، كما كان لحركة الفينيقيين في حوض البحر الأبيض المتوسط دورا كبيرا في التبادل الثقافي بين ساكنة هذه المنطقة.

وفي اليونان القديمة (وفي أثينا بالتحديد) ظهر نظام المدينة cité/polis في مكان نظام القبيلة clan/genos لأول مرَة في التاريخ من خلال اتحاد مجموعة من القبائل وتحالفها وقد نتج عن هذا الاتحاد توحيدا للعبادة وانتقال الآلهة من المنازل إلى المعابد التي بنيت خصيصا لهذا الأمر في وسط المدينة ومسايرة لذلك تطوَر التنظيم الاجتماعي وتطورت التشريعات والقوانين وظهر ما يعرف بالديمقراطية.

وفي هذه الأجواء ظهر (أرسطو) الذي يمكن اعتباره المؤسس لفرع الأنثروبولوجيا السياسية وأيضا المؤرخ والرحَالة اليوناني (هيرودوت) الذي يعتبر أوَل من بيَن أهمية الملاحظة والتحليل النقدي من خلال كتاباته حول تاريخ المصريين والفرس (حيث تحدث عن فكرة الروح عند المصريين وبيَن أهمية المحافظة عليها من خلال تقنية تحنيط المومياء) وأيضا الشاعر (هوميروس) الذي تأثَر بالأدب المصري القديم حيث أخد عدَة مقاطع من القصص المصرية المكتوبة على أوراق البردي ووضعها في الإلياذة والأوديسة[2]

وفي الصين القديمة أعطت الفلسفة الكونفوشيوسية الصينية أولَ صورة عن الوظيفية فالعادات بالنسبة لهذه الفلسفة عبارة عن مؤسسات تؤدي وظائف ولا يمكن فهمها دون الرجوع للاحتياجات التي تلبيها هذه المؤسسات، وفي الصين دائما كتب (شوانغ تسي) لأوَل مرَة عن التطور البيولوجي للإنسان.

إذن يمكن حصر العناصر الأولى للأنثروبولوجيا في:

1- الرحلة (السفر) الذي ساعد في معرفة الآخر وتفكيره.

2- علاقة الإنسان بالمقدَس (المعتقد) ومشاركة الدين عبر تماثلاته (المعتقدات) وبناه التنظيمية (المعابد) في وضع نظام ديني ثمَ حياة اجتماعية.

دور المسلمين في تطوير الفكر الأنثروبولوجي:

كان للمسلمين دور لا يستهان به في تطوير الفكر الأنثروبولوجي فقد وصف الرحَالة والجغرافيون العرب والمسلمون من أمثال البكري وابن بطوطة الحياة الاقتصادية والاجتماعية لشعوب إفريقيا وآسيا بدقة متناهية ويمكن اعتبار ابن حوقل (وهو تاجر ورحالة عراقي من بغداد) أوَل من أسَس المنهج الاثنوجرافي باستعماله **اليومية le journal de voyage** التي كان يدوَن عليها ملاحظاته حول البلاد التي يزورها وعاداتها، كما ساهم الفيلسوف ابن رشد في بناء العقل الإنساني بالبحث في مواضيع كالتوحيد l'unicité divine والتحقيق la véracité والحكمة la sagesse humaine والعقل la raison، وساهم الطبيب الرازي في تطوير الصحة النفسية من خلال تركيزه على فكرة (أهمية الإيحاء للمريض بالصحة الجيدة).

[2] الأوديسة والإلياذة هما ملحمتين إغريقيتين كبيرتين منسوبتين إلى هوميروس وتعتبر من أقدم الأعمال الأدبية التي أنتجتها الحضارة الغربية

ويمكن اعتبار(ابن خلدون) أوَل الإثنولوجيين فهو جغرافي ومؤرخ وعالم اجتماع كبير وصف الحياة الاجتماعية ببلاد المغرب (دراسة عادات وتقاليد وطريقة العيش والأكل عن البدو وتحدَث عن العصبية القبلية l'esprit de corps) وهو أوَل من اكتشف بأنَ الإنسان مدني politique/ civil par nature لا يمكنه الاستغناء عن المجتمع (المدينة)، وهو أيضا منظَر نظرية المناخ (تأثير المناخ والبيئة على الأشخاص).

دور الأوربيين قبل عصر النهضة وبعدها:

لقد كان لرحلات (ماركو بولو) للهند وأيضا لاكتشاف (كريستوف كولومب) لأمريكا في 1492 دورا في ظهور نظرة أنثروبولوجية أوروبية للآخر تقوم على العرقية l'ethnocentrisme،كما كان لاكتشاف (كوبرنيك) الحركة المزدوجة للكواكب حول نفسها وحول الشمس، واكتشاف(غاليلي) لدوران الأرض، واكتشاف الطباعة دور لا يستهان به في تطوير الفكر الأوربي فقام (روسو) بالتأكيد على أهمية العقد الاجتماعي بين الأفراد وقام (ديكارت) بالاهتمام بدراسة الجسم l'anthropologie physique والفصل بين الجسم والروح واهتم (داروين) بالبحث في التطور البيولوجي للإنسان كما استعمل (فولتير) لأوَل مرَة مصطلح (فلسفة التاريخ) وكان هو مؤسس التيار الإثنولوجي.

الأنثروبولوجيا في العصر الحديث:

بدأ علم الأنثروبولوجيا مجالا مستقلا في أواسط القرن التاسع عشر وفي ما يلي مجموعة من التواريخ المهمَة في مسيرة هذا العلم:

- 1800 تأسست جمعية (مراقبون في الإنسان) بباريس واهتمت بدراسة الإنسان.

- 1839 افتتاح (المجتمع الإثنولوجي) ببرلين.

- 1841 افتتاح (المجتمع الإثنولوجي) بلندن.

- 1842 افتتاح (المجتمع الإثنولوجي) بنيويورك.

-1859 أسَس عالم التشريح والأحياء (بول بروكا) جمعية (أنثروبولوجيا) بباريس.

- 1863 أعلن (جيمس هانت) أنَ الأنثروبولوجيا هي (علم الإنسان الكامل) بعد أن كان الأوربيون يدرسون الأعراق البشرية فقط.

- 1899 أنشأ (فرانز بواس) أول قسم رئيسي لتدريس علم الإنسان بجامعة كولومبيا بنيو يورك وكان من بين تلاميذه (روث بينيديكت – مارجريت ميد – روبرت لووي – ألفريد كروبير) وقد أصبحوا جميعا من علماء الأنثروبولوجيا المشهورين.